ان الظروف التي عاشها العرب داخل اسرائيل قد ساهمت في تنمية وتطوير قيادات جديدة، ظهرت من خلال التجربة المباشرة، والنضال العملي. فهذه القيادات قد خرجت من بطن المجتمع، وعبرت عن طموحاته وارادته. انها لم تتوارث مناصبها ومواقعها، وهذه هي السمة الاولى لنضال العرب داخل اسرائيل. اما السمة الاخرى للنضال، في تلك الفترة، فقد تركزت على الاصرار على البقاء في الوطن بشتى الطرق. فبعد اقامة الدولة مباشرة، فرض الحكم العسكري على العرب، وكان الهدف الاول لهذا الحكم ينصب على تهجير من بقي من الاهالي من ارضهم، وتفريغ البلاد من اهلها الاصليين؛ وحدثت مجازر كثيرة لقرى بكاملها لتحقيق هذا الهدف؛ وكانت الشاحنات الاسرائيلية تحمل اهالي القرى وتقذف بهم وراء الحدود؛ ولكن هؤلاء كانوا يعودون الى ارضهم متسللين، ويبدأون من جديد.

وقد حدثت حملات تضييق شاملة، حتى على المواد التموينية. وحصلت مجاعات. ومجاعة الخبز التي سادت في البلاد، وخصوصاً منطقة المثلث تعتبر من اشهرها. لقد كان هذا في سنة ١٩٥٣. والخبز، كما هو معروف، طعام اساسي لدينا. فكان الناس يضطرون الى التسلل الى المستوطنات الاسرائيلية لشراء الطحين او الخبز. واذا ما حدث ان ضبط احد من قبل السلطات، يؤخذ منه الطحين، او الخبز، ويضرب ضرباً مبرحاً، ويقدم الى محكمة عسكرية.

ان نضالنا، في البداية، كان محلياً وعضوياً، وبمبادرات فردية الى حد ما. والمقصود، هنا، نضال الحركة الوطنية. اما بالنسبة الى الحزب الشيوعي الاسرائيلي، فان المسألة مختلفة، وسأتحدث عنها لاحقاً.

اذن، ان النضال كان محلياً. بمعنى ان كل قرية، او منطقة، كانت تعبر عن رفضها للواقع الجديد بطريقتها، خصوصاً وان الحكم العسكري قد عزل القرى عن بعضها البعض، وكذلك الحال بالنسبة الى المدن. كان هناك انقطاع كامل بين القرى والمدن العربية. ولم تكن هناك اية وسيلة للاتصال بين هذه القرى والمدن، وهذا الامر ادى الى ظهور قيادات محلية في كل قرية، ومدينة، على حدة، ولم تكن الظروف تسمح بتعرف هذه القيادات المحلية على بعضها البعض، خصوصاً وان هذه القيادات لم تكن معروفة قبل العام ١٩٤٨. من هنا، وجدت القيادات المحلية نفسها مضطرة الى التعامل مع الحزب الشيوعي، على الرغم من غضب الشارع العربي عليه بسبب موقفه المؤيد لقرار التقسيم في العام ١٩٤٧. ان العرب داخل اسرائيل قد وجدوا، بصورة عملية، ان الحزب الشيوعي كان عنيداً وصلباً في دفاعه عن حقوقهم المدنية، والمعيشية، ووجدوا فيه سداً منيعاً وحامياً لهم يتحصنون وراءه.

لم تكن المسألة بالنسبة الينا، في تلك الايام، كيف نعيش ؟ وانما المسألة الاهم هي الوجود والحفاظ على الوجود. ان نكون او لا نكون. ان عدم خبرتنا وضحالة تجربتنا في اساليب النضال قد دفعتنا الى ابتكار اساليبنا الخاصة. فعندما شعرنا بأن السلطات تقاوم تزايد النسل لدينا، كان الاكثار من النسل سلاحاً قوياً في يدنا. وكنا نشعر بأن قلة عددنا قد تكون من اسباب ضعفنا، مع ادراكنا لصعوبة اعالة هذا العدد الكبير من الاولاد؛ وهذا يؤكد ما قلته سابقاً من ان المسألة المطروحة لدينا بالحاح، هي وجودنا بالدرجة الاولى. اما كيف سنعيش، فقد كانت هذه المسألة الثانية، من حيث الاهمية.

ان القيادات المحلية التي ظهرت لم تكن سوى براعم. ولم يكن امامها سوى الحزب الشيوعي، الذي اتخذت منه مظلة، وعملت معه. فمن جهة، كان الحزب، الى حد ما، وسيلة آمنة للنضال؛ ومن جهة اخرى، هو السبيل الوحيد لتلك القيادات الشابة للتعرف على بعضها البعض والالتقاء مع بعضها. فقد كان من الصعب ـ على سبيل المثال ـ ان تحصل على تصريح لعقد اجتماع يضم القوى الوطنية. بل كان هذا امراً مستحيلاً. ولكن الحزب الشيوعي كان يحصل على مثل هذا التصريح من السلطات. وهكذا، يمكن القول ان العمل، من خلال مظلة الحزب الشيوعي وليس في اطاره المباشر، الى جانب المشاركة في المجالس المحلية والقطرية التي تعقد جلسات بين حين وآخر، قد ساهما في تعارف الشبان الذين اصبحوا، فيما بعد، قيادة الحركة الوطنية. ومع مرور الوقت، بدأت مراحل اكثر جدية في العمل، مما اثمر، بعد سنوات قليلة، ولادة «الجبهة الشعبية» التي سأتحدث عنها لاحقاً ايضاً.

اود، هنا، ان اشير الى بعض المحاولات التي ظهرت بين حين وآخر لتأسيس حزب عربي داخل